الصراع الهويّاتي لدى اليهود العرب

حسام أبو النصر*

لا أحد يُنكر الصراع الدائر منذ نشأة كيان الاحتلال الإسرائيلي عام 1948، بين هويّتي الأشكناز والسفارديم، وتحديداً بين الغربيين واليهود العرب، فيما سمّيت إسرائيل الأولى نسبة لمؤسّسيها الأشكناز الذين قادوا الصهيونية نحو دولة على حساب العرب في فلسطين؛ وبالتالي كان اليهود العرب الشرقيون يمثّلون إسرائيل الثانية؛ أي لم يتقلّدوا في بدايات التأسيس مناصب عليا في الدولة التي كانت حكراً على الأشكناز، من رئاسة الدولة إلى الحكومة والجيش وغيرها، فيما استجلبت الصهيونية اليهود العرب كقوّة بشرية، ليعملوا في الخدمات العامة والفلاحة والصناعة وغيرها، واستحدثت لهم مستوطنات خاصة، قبل الاندماج في المجتمع الإسرائيلي.

وهنا يجب أن نقول إن دور اليهود العرب في الصهيونية لم يكن فعلاً أو مؤثّراً؛ بل إنّ جزءاً كبيراً منهم اندمجوا فيها مُكرهين، بعد أن زاد العداء مع العرب، بسبب تصرفات الصهيونية ونفوذ بريطانيا في الدول العربية، ومحاولات تغذية روح الكراهية بينهم، وإغرائهم من خلال الصندوق القومي اليهودي بالإمتيازات، وتحسين ظروفهم المعيشية في "دولة" إسرائيل الناشئة. وحتى نكبة عام 1948 لم يكن اليهود العرب قد اندمجوا بشكل كامل في هذا التحرّك الصهيوني، بل كان أوج الهجرة اليهودية العربية إلى "إسرائيل" في خمسينيات القرن الماضي.

من هنا بدأ الصراع أو الإشكالية الهوياتية، بشكل أوضح، باعتبار أن اليهود العرب بالذات، عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، مرتبطة قبلاً بالبلاد العربية؛ وينسحب ذلك على أدبهم وقصصهم، وحكاياتهم وأكلهم ولبسهم، وكل تفاصيل حياتهم التي ليس لها علاقة بالمجتمع اليهودي الغربي الأشكنازي، ولم تكن هناك عوامل مشتركة تجمع بينهم سوى الديانة اليهودية؛ وخلاف ذلك لا نقاط التقاء. وبالتالي نحن أمام هويات يهودية فسيفسائية غير متجانسة، لا شكلاً ولا مضموناً، وعليها أن تعيش في مكان واحد.

---

* كاتب ومؤرخ فلسطيني، عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين.

ولن تجد رواية مؤكدة عن أسباب هجرة اليهود العرب من بلدانهم إلى "إسرائيل". فهناك خطاب تصحيحي لمؤرّخين يهود، يرى أن إسرائيل كانت المستفيد الأكبر من تلك الهجرة؛ بل هي حرصت على نزوح اليهود العرب كإحتياطي سكاني؛ وهناك من يرى أنهم أُجبروا على الهجرة إثر التضييق عليهم مع تصاعد الصراع العربي – الصهيوني. لكن الثابت فعلاً أن الفقراء من اليهود العرب جاءوا إلى "إسرائيل" بتمويل من الوكالة اليهودية، وكان عليهم أن يقطنوا مناطق الأطراف، أو مناطق المواجهة مع الدول العربية، أو في منازل فرّ منها سكانها العرب، فيما نزحت الطبقة الوسطى والأغنياء منهم إلى مَهاجر أخرى في أوروبا وأميركا وأستراليا وغرب أفريقيا.

وقبل ذلك، كان رئيس شعبة الهجرة في الوكالة اليهودية، إلياهو دوبكين، قدّم شرحاً عن أهمية الجاليات اليهودية في الدول الإسلامية، والتي قدّر تعدادها بنحو ثلاثة أرباع مليون نسمة. فبحلول الأربعينات، وبعدما أخذت تتكشف حقيقة حجم "الإبادة الجماعية" التي تعرّض إليها اليهود في أوروبا، بدأت الأنظار تتّجه إلى اليهود في البلدان الإسلامية، ما شكّل بعدها في "إسرائيل" الصلة والعلاقة بين اليهود المصريين واليمنيين العراقيين المغاربة؛ وتحوّلت أجهزة الجيش، والتعليم ومسارات التعليم المهني،والتوزيع السكاني، وبلديات التطوير، التي كان سبعون في المائة من سكانها يهوداً من الدول الإسلامية، إلى مراكز صناعية غنيّة بالعمل والأيدي العاملة، تعويضاً عن الطاقة البشرية التي فقِدت في الإبادة.

وقد فرضت كلّ هذه الأمور على الشرقيين تجربة حياتية مشتركة، وبلورتهم كطائفة متماثلة، طائفة متخيّلة، في صورة الشرقية الإسرائيلية.

ولو نظرنا إلى خطة المليون التي طُرحت من قِبل بن غوريون أمام الخبراء اليهود، في العام 1942، باعتبارها نقطة الصفر في عملية تهجير العرب اليهود، من موجات الهجرة الكبيرة في خمسينيات القرن الماضي؛ ولكن يعتبر عام 1942 سنة حاسمة. ومن أجل التأكد، فإن الأساس المنطقي لجلب اليهود من الأقطار العربية كان ديموغرافياً؛ كان إلياهو دوبكين قد عرض خريطة هجرتهم من البلاد العربية سالفة الذكر، وكانت تتلخص في إحضار هؤلاء العرب اليهود إلى فلسطين بالكلاب والعصا.

وفي هذه اللحظة التاريخية، سلّطت الأضواء للمرّة الأولى بصورة جادّة نحو اليهود في الدول الإسلامية. لقد كانت هذه المرّة التي تخرج فيها العلاقات بين الشرقيين والغربيين عن نطاق العلاقات التناظرية المتنافرة، وتوضع في معادلة القوّة السياسية الكولونيالية، رغم أن غالبية أعضاء إدارة الوكالة اليهودية عارضوا خطة المليون التي اقترحها بن غوريون، نظراً لأن هذا الحل لا يستجيب للمشكلة المطروحة، وهي إنقاذ مشرّدي الإبادة النازية في أوروبا؛ ولم توضع خطة جلب اليهود الشرقيين موضع تنفيذ سوى بعد قيام "الدولة"، حيث جاء المهاجرون إلى "إسرائيل" من الدول الإسلامية، بما فيها العربية؛ بيْد أن شرقيّتهم لا تكمن في هذه الحقيقة، فقد نشأت شرقيّتهم كإفراز ثقافي،سياسي،اقتصادي، إسرائيلي، وفق ما كتبه يهودا شنهاف.

بداية الاندماج:

ظهرت مراراً عدة محاولات للمزاوجة بين اليهودية والقومية، على ما احتوت من تناقضات صارخة. فقد حاولت الصهيونية إنتاج تطابق بين الدين والقومية، والادّعاء أن لليهود أصلاً واحداً، وأن يهود العالم يشكّلون قومية واحدة. ومن أجل خلق القومية اليهودية، ابتدعت "إسرائيل" ما عُرف ببوتقة الصهر، من أجل صهر المجموعات اليهودية المهاجرة التي تفتقد التجانس، من خلال مؤسّسات عامة، كالهستدروت والكيبوتس والجيش؛ إلاّ أن هذا الخلط العشوائي لتلك المجموعات نجم عنه مزيد من التنافر والصراع والتوترات، وخاصة بين اليهود الشرقيين والأشكيناز الغربيين. ومع توالي الهجرات، فشلت بوتقة الصهر في بناء هوية قومية واحدة لليهود.

وفي البدايات، لم يكن لليهود الشرقيين فرصة كبيرة في نطاق المنهج أو النمط الصهيوني؛ فالحركة الصهيونية كانت، على اختلاف تياراتها الرئيسية، حركة أوروبية؛ وهي شكّلت بهذه الصفة موضوعاً لأبحاث وغايات النخب اليهودية الأوروبية منذ أواخر القرن التاسع عشر. وأي محاولات للادّعاء بأن اليهود الشرقيين ساهموا في خدمة أهداف الحركة الصهيونية بصورة مماثلة لمساهمة يهود أوروبا، إنما هي محاولة محكومة بالفشل؛ فهي تُخضع منذ البداية اليهود الشرقيين لإطار خطاب هرمي يقزّم مكانتهم أو مكانهم.

وحسب ما طالب به بعض الكتّاب الإسرائيليون من نزاهة سياسية، بأن لا تقتصر فقط على وصف الأحداث حول الشرقيين، بل أن تشمل أيضاً إعطاء فرصة لأصوات شرقيين من الماضي – الأصوات التي شهدت انقساماً وقمعاً بإسماع صوتهم– إلى جانب أحداث الحاضر. وعلى سبيل المثال، أصوات: إلياهو أليسار، شمعون بلاص، أو يوسيف دحوح هليفي، ألبرت ميمي، وسمير نقاش، وإيلي شوحط، وسامي شالوم شتريت، وشيكو بيهار، وتسفي بن دور، وكثيرين غيرهم، كتبوا عن اليهود العرب،كأصوات تاريخية شرقية مشروعة؛ وكان لا بدّ من مراجعة كتاباتهم الصحافية واستحضارها في ضوء السياق الذي كُتبت فيه.

وحتى في الكتب الصهيونية، لا تظهر الجاليات اليهودية الشرقية في هذه النصوص إلاّ في التقاطعات التي تتقابل فيها مع الصهيونية، وإن تم تقديمهم في إطار مثل هذا الخطاب كمتساوين نظرياً، لكنهم يبقون دوماً، وبالمطلق، غير متساوين في الممارسة العملية. وعلى نحوٍ مماثل، لا يمكن ليهود الشرق أن ينافسوا يهود أوروبا في درجة المذابح والقتل الذي ارتكبتهما الآلة النازية؛ وبالتالي أي محاولة لإدخال اليهود الشرقيين إلى إطار هذه الرواية التي تحوّلت إلى دين مدني، وإلى إطار متضمن في المجتمع الإسرائيلي، لهي محاولة محكومة سلفاً بإخضاع الشرقيين لهرمية يحتلّون فيها مكانة متدنيّة مقدّماً.

وعند العودة إلى الوراء، مثلما يفعل هارفي غولدبرغ، للبحث عن الجذور التاريخية لليهود الشرقيين، والذي اكتشف الكثير من السمات الجوهرية المتشابهة بين يهود الدول الإسلامية، نستطيع بعدها التمييز بين الأحكام والمفاهيم الجوهرية، وبين الشرقية كظاهرة سياسية؛ فبهذه الطريقة، يمكن خلق جدل سياسي إيجابي حول الشرقية.

والديانة في الواقع تُعتبر منطقة نفوذ لدى المزراحيم في "إسرائيل". والتعبئة الدينية كانت كلّ الوقت مدخلهم إلى الأوساط الجماهيرية وإلى السياسة؛ والنجاح الساحق لحزب "شاس" منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، دليل واضح على العلاقة الخطرة بين الديانة والإثنية لدى المزراحيم في "إسرائيل". وهناك مجموعة عامة من التفسيرات في الأدبيات، كما في الخطاب الشعبي لهذا النجاح، ومنها أن "شاس" تقدّم برامج تعليمية للمزراحيم وبرامج رفاهية وتشغيلية، وأنها تشكّل نوعاً

من الاحتجاج على النخبة الإشكنازية العلمانية، وأنها تُنتج قيادات فاعلة، أو أنها محصّلة إنتاج أصيل للديانة .

ومن العوامل التي أخّرت الاندماج، إشكالات التمايزات الاجتماعية في "إسرائيل"، ومنها، الانقسام إلى يهود غربيين "أشكناز" ويهود شرقيين "مزراحيم" أو "سفارديم"، حيث تبرز بين فترة وأخرى مظاهر هذا الانقسام ومظاهر التمييز ضد المزراحيم، كما جرى في حوادث وادي الصليب في حيفا سنة 1959، أو في التظاهرات العنيفة لحركة "الفهود السود" في مطلع سبعينيات القرن الماضي، أو في التصريحات التي أدلى بها النائب عن حزب العمل أوري أور، والتي اعتُبرت مسيئة لليهود من أصل مغربي.

ويشير الملف إلى أن تلك المظاهر تتجسد في "الفجوة الطائفية" المسمّاة "إثنية" أحياناً، والتي تفصل بين الطرفين، على مستوى الحياة والتعليم والعمالة والثقافة والتمثيل في قمّة الهرم السياسي والعسكري؛ كما تتمثّل في نمط الاقتراع للكنيست ولرئيس الحكومة، حيث تحصد الأحزاب اليمينية معظم أصوات المزراحيم، فيما تصوّت أغلبية الأشكيناز لمرشّحي الأحزاب اليسارية. وتشير التقارير هنا إلى بروز المفارق الآتية: إن المزراحيم "ضحيّة" للصهيونية، لكنهم في الوقت نفسه "جلاّد" للفلسطينيين.

ولكن بقي الانقسام الإثني بين المستوطنين المهاجرين. وتعود أسباب هذه الانقسامات إلى تعدّد الأصول الإثنية والثقافية للمهاجرين، إضافة إلى توافدهم في فترات مختلفة، وهو ما ولّد مجموعات غير متجانسة. وأبرز هذه الصراعات هي بين اليهود الإشكناز الغربيين واليهود الشرقيين، في ظل الهيمنة الإشكنازية على "الدولة"، وتهميش بقيّة الفئات والجماعات الإثنية. وعلى سبيل المثال، فقد وصلت نسبة الفقر في "إسرائيل" عام 2016 إلى 22%، حيث يتركّز الفقر لدى اليهود الشرقيين والفلسطينيين في الداخل المحتل.

وهذا التهميش أدّى إلى ظهور حركات احتجاج في صفوف اليهود الشرقيين، ضد هيمنة الإشكناز على المفاصل الرئيسية في "الدولة"، والتي أثمرت تبلور أحزاب وحركات سياسية، أبرزها "شاس". ولم تقتصر هذه التصدّعات الإثنية على اليهود الشرقيين والغربيين، بل تعدّتها لتشمل الجماعات

اليهودية كافة: الروسية والإثيوبية والآسيوية، وأميركا اللاتينية، وغيرها من الإثنيات، إلى جانب الصراع اليهودي– العربي الفلسطيني.

وهنا نشير إلى أن جهاز المخابرات الإسرائيلية يُعدّ القطاع الذي وظّفت فيه "إسرائيل" عند نشأتها عدداً كبيراً من اليهود العرب، لتستفيد من لغتهم وأشكالهم في اختراق "محيط الأعداء". والمشكلة في رأي شينهاف هي التناقض الذي عاملت به "إسرائيل" اليهود القادمين من البلاد العربية: "كانت تمحو ثقافتهم العربية باضطراد لمصلحة فكرة الاندماج؛ وفي الوقت نفسه، تستخدم عروبتهم مسوّغاً للاعتراف بهم في أجهزة الدولة الأمنية".

الجيل الثاني من اليهود العرب ساهم في الاندماج؛ فلا شك أنه بعد مضي 75 عاماً من الاحتلال وقيام "إسرائيل"، نشأ جيل جديد، هم أبناء اليهود العرب؛ وقد وِلدوا وعاشوا في "إسرائيل"، وضمن المجتمع الذي أرادته الصهيونية لهم، وليس ما أرادته العادات والتقاليد واللغة، التي عاشها آباؤهم وأجدادهم في بلادهم العربية؛ وبالتالي حدث اندماج طبيعي لهذا الجيل في الدولة الإسرائيلية ومؤسساتها؛ كما أن حدّة العنصرية بين الإشكناز والسفارديم بدأت تأخذ منحىً أقل بكثير، لأن الجيل الثاني والثالث أيضاً من الإشكناز جزء كبير منه ولِد في "إسرائيل"، وفي المستوطنات؛ وبالتالي نحن نتحدث عن مجتمع إسرائيلي تجمعه الجغرافيا، والمكان، خاصة أنه حوّل حياة الفلسطينيين، بالمقابل، إلى جيتوهات، ليصبح هو الوجود الطبيعي وليس طارئاً، وفق رؤية الغرب والاحتلال.

وبالطبع، كانت هناك محاولات على مدى العقود الماضية لمحو الثقافة العربية بشكل كامل لدى يهود العالم العربي. لكن هذه المحاولات لم تنجح بالكامل، حيث كان الأجداد يتحدثون بالعربية، لكنّ أبناءهم كانوا ينهرونهم؛ وكانت المدارس تُرسل المدرّسين إلى البيوت وتطالب اليهود العرب بالتوقف عن التحدّث بالعربية.

***اليهود العرب نحو التديّن:**

كان من الممكن إدماج العرب اليهود في المشروع الصهيوني إذا أصبحوا ملتزمين بالديانة اليهودية؛ وهم في عيون المبعوثين ظهروا كرُسلٍ متديّنين من فئة الشاداريم؛ والشاداروت لهم جذور دينية أقدم من الصهيونية بكثير.

فإذا كنت تجد في أوروبا تعبئة صهيونية، قومية، مصحوبة بمشروع علماني، فإن العرب اليهود ساروا في اتجاه آخر نحو طريق القومية اليهودية. ومن أجل إعادة العرب اليهود إلى التاريخ، احتاج مبشّرو الحركة العلمانية إلى أن يجدوا فيهم الوازع الديني، أو أن يزيّفوا الحماسة الدينية.

لذا كان لا بدّ من تعزيز دور الديانة في إدماج اليهود العرب في المشروع الصهيوني، من خلال بلورة الهوية المزراحية عبر الدين، ودخولها في الثقافة الإسرائيلية (المهجّنة)، رغم أن اليهود العرب لم يستطيعوا تشكيل حزب موحّد خالص لهم يجمعهم جميعاً؛ أي أنهم شاركوا في أغلب الأحزاب الإسرائيلية، ومنها حتى اليسارية، والتي كان جزء منها يقارع الصهيونية، وغير راضٍ عن التوجهات الاحتلالية الاستيطانية؛ إلاّ أنهم شكّلوا حزباً متديّناً (شاس)، والذي لم يندمج فيه كل اليهود العرب، ولكن كان أساسه التطرف الديني اليهودي، وهو ما ساهم في بلورة موقف واضح اتجاه الاندماج في الصهيونية فيما بعد؛ بل ويصبح اليهود العرب أداة لها، وصولاً إلى التطبيع مع الدول العربية، ورفضهم لقيام دولة فلسطينية؛ أي تحوّل جذري من ضد الصهيونية، إلى الأكثر صهيونية؛ ونجاح "شاس" كان دليلاً واضحاً على العلاقة الخطرة بين الديانة والإثنية لدى المزراحيم. لذلك، لم يكن هناك خيار أمام اليهود العرب سوى التديّن حتى يكون لهم صوت في الخطاب الصهيوني؛ بل وليثبتوا ولاءهم لهذه الدولة المستحدثة بأي شكل من الأشكال، وانتهاء ولائهم لدولهم العربية التي غادروا؛ وهذا أدّى إلى أشكال متدحرجة في السلوك اليهود العربي، بين الحنين لأرضهم وأصلهم وهويتهم العربية، وبين إثبات تديّنهم لخدمة الصهيونية والولاء لإسرائيل؛ وكان سؤال الهوية الأكثر إلحاحاً لأجيال من اليهود العرب، حيث كان أغلبهم يتحدثون اللغة العربية، فيما الثقافة المهيمنة كانت الثقافة الإشكنازية.

وربما تغيّرت الصورة قليلاً مع تحسّن الوضع السياسي والاجتماعي لليهود العرب، وظهور ثقافتهم الأصلية في الموسيقى والطعام دون خجل. ورغم ذلك، فالإحصاءات الرسمية تشير إلى أنهم

يحلّون ثالثاً في قطاعات التعليم بعد الإشكناز والمهاجرين الروس الذين وفدوا لإسرائيل في التسعينيات.

اليهود العرب وتعاملهم مع الاستشراق :

بعد تغوّل الحركة الصهيونية وتمكين الدولة اليهودية العنصرية في فلسطين، بدأت المناداة بالقومية الواحدة، وطرأت متغيرات جعلت من الضرورة تشبيك المجتمع اليهودي العربي ضمن محيطه، وأن لا يكون شاذاً عنه (أي أن لا يصبح جيتو في قلب جيتو)، سواء من خلال التعايش في تجمعات سكنية واحدة، أو من خلال مؤسسات "الدولة" الإسرائيلية.

وما كان اليهود العرب يعانون منه في بلادهم من "عمليات استشراق"، حدث أيضاً داخل "إسرائيل"، من الاستشراق اليهودي الذي لم يكن مهمّته فقط التوغل في البلاد العربية، بل مواجهة الاستغراب العربي؛ وأيضاً اختراق اليهود العرب لدمجهم في الدولة الجديدة. وقد قادت ذلك العديد من المعاهد والجامعات الإسرائيلية، وساهمت في تعزيزه من خلال الدراسات العربية الشرقية.

وسابقاً، تناول كُتّاب كثيرون، ومنهم إدوارد سعيد، آثار الاستشراق على كل الوطن العربي، والتي بقيت لعقود طويلة؛ وبالتأكيد تأثّر بها اليهود العرب قبل استيطانهم في فلسطين؛ أي أنهم كانوا يحملون أفكاراً معادية لهذا الاستشراق الغربي، والذي نعتهم بالرجعية والتخلف؛ وعندما حضروا إلى "إسرائيل" (يهود اليمن مثلاً)، وجدوا أنفسهم يعيشون داخل هذا الاستشراق الغربي. وكان من الطبيعي عدم تقبّلهم له في بادىء الأمر؛ بل أوجد ذلك حالة تناقض خطير بين المجتمعين، السفارديم الشرقيين والإشكناز الغربيين، أي بين المستشرقين الغربيين والعرب اليهود. وظلّت هذه الحالة سائدة لسنوات طويلة، حيث بقي اليهود العرب مضطهدين ولا يعاملون معالمة الغربيين الذين حكموا "الدولة"، وتقلّدوا أعلى المناصب، فيما كان العرب يعملون في أعمال شاقّة، ولا يصلون لمراكز مهمة في "الدولة"؛ وهذا الواقع تجسّد في الصراع الحقيقي بين الاستشراق واليهود العرب في "إسرائيل"؛ وفي الوقت نفسه، حاول بعض اليهود العرب أن يلعب دور المستغرب؛ أي أنه بدأ يترجم أعمال بلاده للعبرية والغربية، وينقل عاداته وتقاليده إلى داخل المجتمع الإسرائيلي. ولكن المستغرب هنا أن العربي اليهودي كان يقوم بهذا الدور محاولاً الاندماج، عكس

المستغرب الفلسطيني مثلاً، والذي كان يقوم بهذا الدور في مواجهة الاستشراق الغربي والإسرائيلي؛ والنتيجة هي اندماج بين الاستغراب والاستشراق في "إسرائيل"، في حالة نادرة، حيث تقاطع الإثنان في مواجهة الفلسطينيين، ولكي يثبّتوا وجودهم على أرض فلسطين المحتلة، فأصبح الاستشراق الغربي يروّج للاستغراب العربي اليهودي ويسوّق له، باعتباره جزءاً من منطقة الشرق الأوسط.

وقد استغلّت الصهيونية ذلك لتكرّس وجودها، وتدّعي قِدمها في المنطقة، وأن هذه الفئة العربية اليهودية جزء من تاريخها، الذي كان بالأمس القريب رجعياً متخلفاً، من قِبل يهود الغرب؛ بل وانتقل اليهود العرب من رافضين للفكر اليهودي الغربي الصهيوني، إلى الأكثر تطرّفاً من الغربيين اليهود.

كذلك، برز صراع الاستشراق داخل "إسرائيل"، حيث نقل اليهود الأشكناز الأفكار الغربية والعادات والتقاليد إلى داخل "إسرائيل"، لتصبح معمل الاستشراق في قلب الشرق، ومصنع التجارب له.

وكما ذكرنا، فإن جزءاً كبيراً من المستشرقين الغربيين اليهود أسهموا في الصهيونية، وانتقلوا للعمل جغرافياً داخل "إسرائيل الجديدة". وبعد تأسيسها، شكّل ذلك اختلافاً لدى المستشرقين في نظرتهم للغرب، وبما يتماشى مع الصهيونية وهذه الدولة الوظيفية؛ وأوّل نقاش جرى هو حول هوية إسرائيل كدولة شرقية، بما أنها في الشرق الأوسط، أو أنها دولة غربية في الشرق. وبالتأكيد، فإن بُناة إسرائيل الأولى هم يهود الغرب الأوروبيون، والذين جاؤوا بأفكار محمولة من هناك اتجاه الشرق؛ لكن بقي الصراع قائماً بين الأفكار المحمولة، والجغرافيا التي احتلّوها، مما شكّل تناقضاً كبيراً، أوّلاً حول الأوصاف التي حملوها عن الشرق؛ وجزء من هؤلاء اليهود (العرب منهم) كان لديهم فكر مناهض للفكر الاستشراقي الغربي، الذي أصبح ينظر إليهم نظرة أخرى بعد قيام "إسرائيل"؛ وهو أحدث شرخاً، خاصة في تعامل بعض المستشرقين الغربيين معهم، ومع من تبنّوهم، فيما عزّز يهود الغرب هذا الاستعمار؛ بل هم وجدوا أن "إسرائيل" هي نتاج حقيقي للاستشراق، الذي أراد أن يغيّر الشرق بأكمله كما رسمه الغرب في مخيّلته.

لذا، كان من الضروري دعم الإسرائيليين كونهم سيحقّقون حلم الغرب في اختراق الشرق؛ وهذا ما جعل من المهمة تتحوّل إلى عسكرية، إستيطانية، إحلالية، كولونيالية، وأوجب على المستشرقين

الغربيين دعمها لا هدمها، وأن أي خلافات شكلية في الاستشراق لا تهزّ العلاقة فيما بينهم، باعتبارهم انبثقوا عن استشراق الغرب في الأصل.

الرؤية التاريخية سبباً في تحوّل نظرة اليهود العرب:

عندما جاء الاحتلال الإسرائيلي كان يحمل أفكاراً سياسية صهيونية بحتة. وكانت هناك محاولات منذ تأسيس صندوق استكشاف لفلسطين 1965م، لربط أي مكتشفات أثرية بالتوراة والرواية اليهودية.

وقد فشل هذا الفعل في إثبات ذلك؛ إلاّ أنه من خلال الماكينة العسكرية، حاول تحويل الأمر إلى حقيقة على الأرض، وتأسست جمعية بحث أرض إسرائيل آثارها، عام 1914م، والتي عملت أيضاً على التنقيب الأثري وربط كل المكتشفات بالكتب القديمة؛ والنتيجة أن رواية التوراة كانت ترتكز على وجود دولة داود وسليمان في منطقة (يهودا والسامرة)، أي الضفة الغربية؛ إلاّ أن الصهيونية احتلّت أوّل ما احتلّت مناطق عام 1948م، وهي الواقعة على طول الساحل الفلسطيني، والنقب والشمال، والتي لا تعدّ جزءاً من كل روايات التوراة؛ وشكّل ذلك تناقضاً كبيراً بين كذبة الصهيونية وتصديقها، وأن هناك فجوة في الرواية التاريخية بين اليهود العرب والإشكناز منذ اللحظة الأولى لدخول الصهيونية أرض فلسطين وإقامة مستعمرات فيها. لذا سعت "إسرائيل" لتصغير هذه الفجوة على مدار عقود، من خلال التوسع القائم والمتسارع، مستغلّة توجّه اليهود العرب نحو التديّن والتطرف، وبناء المستوطنات في مناطق الضفة الغربية، التي تعدّ وفق رؤيتهم التاريخية مناطق يهودا والسامرة، مع تعزيز الارتباط التوراتي بهذه الأماكن (الخليل، القدس، نابلس) مثلاً، وربطها دينياً بهم؛ والدليل أن أساس وقف المفاوضات هو تغوّل الاستيطان واستمراره منذ توقيع اتفاقية أوسلو؛ بل هو أصبح أضعاف ما كان عليه قبل ذلك؛ وهذا الواقع قوّض "عملية السلام".

لقد اعتبرت "إسرائيل" أن هذه المستوطنات جزء لا يتجزأ من "الدولة"، وعملت على توسيعها وربطها بها من خلال شبكات الطرق، مما يدل على أن هذا المشروع طويل الأمد، وله امتداد استيطاني، عسكري، وسياسي، وتاريخي، توراتي(على سبيل المثال لا الحصر، مستوطنة معالي

أدوميم، وهي ضمن مشروع القدس الكبرى)؛ وهذا ما خلق أملاً كبيراً لليهود العرب في إحياء رؤيتهم الدينية التاريخية، وتعزيز ارتباطهم بدولة إسرائيل وفق العوامل التي ذكِرت سابقاً، في ظل فقدانهم لأي ارتباط هوياتي أو سياسي؛ إضافة لعامل مهم، وهو إحياء فكرة العودة (ليهودا والسامرة)؛ كما عزّزت "إسرائيل" التطرف الديني اليهودي العربي ضد الفلسطينيين، وأصبح اليهود العرب في صدام مباشر مع الفلسطينيين، بعد أن كانوا لا علاقة لهم بالصهيونية في بداياتها.

موقف اليهود العرب من التطبيع:

لقد طرأت تغيّرات كثيرة في العالم العربي، أثّرت أيضاً في مواقف اليهود العرب وغيّرتها ، ومنها غير المباشرة، مثل التغيرات الإقليمية والدولية، وأهمها سقوط الاتحاد السوفياتي، وحرب الخليج الأولى والثانية التي أحدثت شرخاً عربياً، مع ظهور أقطاب جديدة في العالم (الصين، كوريا الشمالية، روسيا) وتحالفات جديدة (تركيا) مثلاً، والمشروع الإيراني الذي اجتمع ضدّه العرب والولايات المتحدة، ومعهم "إسرائيل" طبعاً؛ والأهم من كل ما سبق هو بدايات الجنوح لما سمّي عملية "السلام"، منذ توقيع اتفاقيات كامب ديفيد المصرية – الإسرائيلية (1979)، وصولاً إلى إتفاق أوسلو (1993) واتفاق وادي عربة (1994)؛ وهذا أيضاً شكّل عاملاً مهماً في تغيير مواقف اليهود العرب، وحتى اليساريين منهم. فإذا كان العرب أنفسهم قد دخلوا في اتفاقيات "سلام" مع "إسرائيل"، فما المانع أن يغيّر ذلك موقف اليهود العرب أيضاً، والذي وقع على عاتقهم ضرورة تحديد هويتهم السياسية. ولا يوجد مانع في أن يشترك اليهود العرب في مثل هذا التحرك السياسي باتجاه المحيط العربي؛ وليس غريباً القول إن الصهيونية كانت تستغل اليهود العرب منذ نشأتها في اختراق العلاقات مع العرب أنفسهم، وأيضاً التدخل في الشؤون العربية؛ بل إن الوجود اليهودي في البلاد العربية كان كمسمار جحا. لكن من المستغرب أن اليهود العرب الذين كانوا متعطّشين لامتدادهم العربي، أصبحوا بعد حركة التديّن في "إسرائيل"، الأبعد عن ذلك؛ بل إن الإشكناز، بالتحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، كانوا السبّاقين للتطبيع؛ وهم سعوا جاهدين لتطوير العلاقات العربية – الإسرائيلية، وهذا ما يحدث حالياً من خلال توقيع اتفاقيات "سلام" مع الإمارات والبحرين والسودان والمغرب، وتفعيل العلاقات مع قطر، وغيرها من الدول، وصولاً

لتطبيع العلاقات الإسرائيلية مع السعودية الرافضة لذلك حتى الآن؛ وكل ما سبق يهدف لتجاوز المبادرة العربية للسلام، وأساسها قيام دولة فلسطينية كشرط أساسي للتطبيع مع العرب؛ ولم يتقبّل ذلك بعض الكُتّاب اليهود العرب المتمسكين بمواقفهم اليسارية، أو اليهود العرب المتشددين دينياً وعنصرياً، والذين يرفضون الأشكال التطبيعية وفق رؤية دينية لا سياسية، فيما يتساوق السياسيون من اليهود العرب، أو غير المؤطّرين، أو العلمانيين وغيرهم، مع الرؤية الحكومية الإسرائيلية؛ ولما لا، إذا كان اليهودي العربي سيزور بلاده بشكل رسمي بعد انقطاع، وخاصة بعد السماح لليهود العرب بأن يستلموا مناصب عليا في الدولة؛ ووصل الحد لتشكيل حكومة فيها وزراء من اليهود العرب مثلاً؛ وقد يكون لهذا الأمر عدة مغازي، وأهمها أن اليهودي العربي أصبح يتمتع بكافة الحقوق في "إسرائيل" مثله مثل الأشكنازي، وهو صاحب قرار، ليس فقط في الحكومة، بل في الجيش والشرطة؛ والنتيجة هي أن اليهود العرب أصبحوا مثلهم مثل الأشكناز، الأقرب للتطبيع، إذا كان ذلك يخدم مصالحهم رؤيتهم، خاصة اتفاقيات أبراهام، والتي تقوم على أساس ديني بغلاف سياسي؛ وهذا يحقّق رغبات اليهود العرب الدينية، حيث لعب الأشكناز على هذا الوتر.

وبما أن اليهود العرب أخذوا المنحى الأكثر تطرفاً (وهذا لا يقتصر عليهم بالطبع)، كان لا بدّ من تعزيز تبنّي السياسة الإسرائيلية لهم، وذلك من خلال اتجاهين رئيسين: عنف وأبارتايد أكثر ضد الفلسطينيين، وتطبيع وانفتاح أكبر على العرب، للتغطية على الاعتداءات الإسرائيلية؛ وهنا أصبحت الفرصة مواتية لدى اليهود العرب من خلال الرؤية الحكومية بتعزيز العلاقات العربية الإسرائيلية؛ وهذا ما يسمح لليهود العرب بإحياء حنينهم لبلادهم العربية؛ بل وبرزت توجهات لديهم تدعو للتعويض عن خروجهم وعن ممتلكاتهم في البلاد العربية؛ وتأتي اتفاقيات أبراهام للسلام تجسيداً لهذه العلاقات اليهودية – العربية، وليس فقط بالمفهوم السياسي الإسرائيلي.

وقد رعت الخارجية الإسرائيلية مؤتمراً دولياً في الأمم المتحدة بعنوان: العدالة للاجئين اليهود من الدول العربية، حيث حمّل المؤتمر في بيانه الختامي الجامعة العربية مسؤولية خروج اليهود من الدول العربية، وطالب بتعويضات لهم لا تقل عمّا يطالب به اللاجئون الفلسطينيون.

وجاءت المحصّلة النهائية بنجاح الصهيونية في دمج اليهود العرب ضمن سياستها، وفصلهم عن محيطهم العربي، وجعل نشاطهم الفاعل مع الصهيونية ضد قيام كيان فلسطيني؛ بل وإشراكهم

عملياً في هذا المسار، وتعزيز تطرّفهم الديني الذي سيخلق حاجزاً مباشرًا أمام أي إمكانية لتحييد اليهود العرب عمّا يحدث، وإدخالهم في مؤسسات الدولة، ورويداً رويداً في عملية صنع القرار، للوصول في النهاية إلى مرحلة تطبيع العلاقات الإسرائيلية مع الدول العربية التي خرج منها اليهود العرب.

مراجع البحث:

(1)حسام أبو النصر، رؤية اليهود العرب للدولة الفلسطينية والتطبيع، أوراق فلسطينية، مؤسسة ياسر عرفات، العدد 26، ربيع2021.

(2)خالد عايد، اليهود الشرقيون في إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلّد 9، العدد 36، خريف 1998.

(3)عقل صلاح، صراع الهويّات القاتل.. "إسرائيل" من الداخل، 19 شباط 2022.

(4) يهودا شنهاف، اليهود الشرقيون في كتب التاريخ الإسرائيلية، قضايا إسرائيلية، مدار، رام الله، العدد 14، ربيع 2004.

(5)يهودا شنهاف، الصهيونية والكولونيالية وتحويل العربي اليهودي إلى التديّن، قضايا إسرائيلية، مدار، رام الله، العدد 16، خريف 2004.